البحث الثامن

علم الأديان فى الفكر الإسلامى

يرى العلماء المسلمون أن علم الأديان علم إسلامى ، أى أنه لم يسبق للعلماء قبل الإسلام أن كتبوا فيه كتابة مستقلة ، بل جاء حديثهم عن أديان غيرهم فى ثناء البحوث النفسية ، أو الفلسفية ، أو الجدلية ؛ فيذهب محمد عبد الله دراز فى كتابه : " الدين " إلى أن كتابات المسلمين فى علم الأديان تتميز بطابعين جديدين :

أما أحدهما ، فهو أن الحديث عن الأديان بعد أن كان فى العصور السابقة ، إما مغموراً فى لجة الحديث عن شئون الحياة ، وإما مدفوعاً فى تيار البحوث النفسية أو الفلسفية أو الجدلية ، أو على الأقل محدوداً بحدود العقائد الموضوعية وما يشارفها ، أصبح فى كتب العرب دراسة وصفية واقعية ، منعزلة عن سائر العلوم والفنون ، شاملة لكافة الأديان المعروفة فى عهدهم ، فكان لهم بذلك فضل السبق فى تدوينه علماً مستقلا ، قبل أن تعرفه أوربا الحديثة بعشرة قرون .

وأما الآخر – وهو ليس أقل نفاسة من سابقه – فهو أنهم فى وصفهم للأديان لم يعتمدوا على الأخيلة والظنون ، ولا على الأخبار المحتملة للصدق والكذب ، ولا على العوائد والخزعبلات الشائعة فى الطبقات الجاهلة ، والتى قد تنحرف قليلا أو كثيراً عن حقيقة أديانها ، ولكنهم كانوا يستمدون أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوقة بها ، ويستقونها من منابعها الأولى. وهكذا بعد أن اختطوه علماً مستقلاً ، اتخذوا له منهجاً علمياً سليماً .[187]

قد يكون هذا صحيحاً من زاوية عدم إفراد كتب فى علم الأديان – إلا إذا اعتبرنا موضوع كتابى : الإلياذة والأوديسا تأريخاً دينياً – ، أما إذا نظرنا من زاوية نقد العقائد ، أو محاولة التوفيق بينها وبين الفلسفة، فذلك راجع إلى العصور القديمة – كما سبق بيانه فى المبحث السابع – ، وهو الأمر الذى يقوم عليه علم مقارنة الأديان فى العصر الحديث ؛ إذ أن الخطوة الأولى على طريق البحث فى هذا العلم ، هو نقد العقيدة الموروثة ، وهذا لم يتوفر للعلماء المسلمين – بل لم يكن فى مقدورهم من ناحية إيمانهم بالإسلام – إلا بالنسبة لعقائد الآخرين فقد كانت المناقشات أثناء العصور الوسطى تدور حول نفى أو إثبات صحة العقائد

---

[187]) صـ ١٤

المسيحية . وكان للمسلمين باع طويل فى نقدهم لتلك العقائد [188]، واستخدموا فى نقدهم لها مناهج متعددة، فاتجه البعض إلى استخدام منهج التسليم جدلاً بصحة الأناجيل والتدليل على أنها لا تتضمن ما يدل على عقيدة إلهية المسيح ، ولا على بنوته الحقيقية لله ، معتقدين أنه إذا انهار هذا الأصل من أصول ديانتهم انهارت بقية عقائدهم . وهذا ما فعله — على سبيل المثال — الإمام الغزالى فى كتابه : " الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل ". واتجه فريق ثان إلى الطعن فى قيمة الأناجيل من حيث صحتها ككتاب مقدس ، مبينين تحريفها ، لما وجدوه من تناقض وتعارض بين نصوصها ، ولضعف سلسلة رواتها : كما فعل إمام الحرمين الجوينى فى كتابه : " شفاء العليل فيمن حرف الإنجيل " ، لأن المسيحيين يدعون أنهم استخلصوا عقائدهم منها ، فإذا ثبت تناقضها انهارت عقائدهم من أساسها . واتجه فريق ثالث إلى نقد عقائد المسيحية نقداً عقلياً يؤدى إلى تهافتها وظهور لامعقوليتها ، كما فعل أبو عيسى الوراق فى كتابه : " الرد على فرق النصارى" . واتجه فريق رابع إلى الجمع بين هذه المناهج الثلاثة ، كما فعل القرافى فى كتابه : " الأجوبة الفاخرة ".

تلك هى مناهج المسلمين الأوائل فى نقد المسيحية ، وهى ، رغم كونها مناهج جدلية تقوم على اعتقادات مسبقة ، استقاها المسلمون من القرآن الكريم ، قد انتقلت إلى الغرب واستفاد منها الأوربيون ، بل تبنوها ، فكانت الأساس الذى قام عليه علم نقد الكتب المقدسة فى أوربا ، حتى قال أحد علماء الأديان الفرنسيين ، فى معرض حديثه عن كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم : " إن نقده للعهد القديم كنقده للعهد الجديد ، يفوق من عدة وجوه ، وفى كثير من التفاصيل ، نقد القرن التاسع عشر لهماعشر عشر لهما " [189] لكن المجادلين المسلمين لم يطوروا مجهودهم النقدى للمسيحية ، بل وقفوا عند

---

[188]) انظر :

١. الرد على النصارى [أبو عثمان الجاحظ ت ٢٥٥ هـ]
٢. شفاء العليل فى بيان ماوقع فى التوراة والإنجيل من التبديل [إمام الحرمين الجوينى ٤٧٨ هـ]
٣. النصيحة الإيمانية فى نصيحة الملة النصرانية [ابن يحيى المتطبِّب ت ٥٨٩ هـ]
٤. مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان [أبو عَبيدَة الخزرجى ت ٥٨٢]
٥. الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل [حجة الإسلام الغزالى ت ٥٠٥ هـ]
٦. الرد على النصارى [الجعفرى ت بعد ٦٣٢]
٧. الفصل فى الملل والنحل [ابن حزم ت ٤٥٦ هـ]
٨. الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة [القرافى ت ٦٨٤ هـ]

[189]) محمد حسانين : مقدمة تطور العقائد لـ " شارل جنيبيوت " صـ ١١ نقلا عن الفريد جيوم : النبوة والتنبؤ عند السامين — باريس ١٩٥٠ صـ ٤٨٦ .

حد التدليل على زيف العقائد المسيحية ، وتبعهم فى ذلك المؤلفون المسلمون المحدثون الذين لا يعدو مجهودهم فى هذا المضمار أن يكون نشر ، أو إعادة نشر المخطوطات الجدلية القديمة ، أو إعادة عرض آراء المجادلين المسلمين القدامى فى أسلوب جديد.[190]

يتبين من هذا أن مناهج المسلمين فى علم الأديان تتلخص فى :

١. منهج تاريخى وصفى ، مثل : الملل والنحل للشهرستانى ، وهو كتاب تاريخ للأديان والفرق ، اتبع المنهج الوصفى التاريخى للملل والنحل.[191]

٢. منهج جدلى ، مثل : الفصل فى الملل والنحل لابن حزم.[192]

أما مقارنة الأديان بالمعنى الذى شرحناه سابقاً ، فلم يظهر إلا فى العصر الحديث ، يقول الأب قنواتى : " إن تاريخ الأديان المقارن لم يتكون علمياً إلا فى أوائل القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر، إذ لم يكن من قبلُ الروح العلمى والطرق العلمية متوفرة لدى الباحثين ، ولم تتوفر أيضاً الوسائل للتحصل على المعلومات الكافية والدقيقة عن الديانات العديدة المنتشرة فى العالم . غير أن مجرد المقارنة والوصف الخارجى للظواهر الدينية يرجع عهدها إلى التاريخ القديم عند اليونان والرومان ".[193]

ويرى دراز أن المنهج الجديد المبتكر فى العصر الحديث ، فهو " ضرب من الدراسات النظرية ، والاستنباطات الكلية ، التى تهدف إلى إشباع نهمة العقل فى التطلع إلى أصول الأشياء ومبادئها العامة ، حين تتشعب عليه جزئياتها وتفصيلاتها .

بيان ذلك – فى موضع علم الأديان – أن الذى يستقرئ الملل على كثرتها ، إذا درسها دراسة مقارنة، وأخذ يعزل ما فيها من المفارقات ووجوه الاختلاف ، سيجد فيها ألبتة وجوهاً من المشابهة تتلاقى

---

[190] المصدر السابق صـ ١٠ – ١١

[191] سلك فيه المؤلف منهجاً جديراً بالعناية والدرس والاتباع ، حتى من الناحية الشكلية ، إذ قدم له بمقدمات خمس ، وضع فيها خلاصة علمه ، وأودعها صفوة تجاربه وثقافته ، وقد قسم الكتاب بعد هذه المقدمات إلى قسمين : قسم خاص بأرباب الديانات والملل ، ويقع فى ثلاثة أجزاء : جزء خاص بالمسلمين ، وثان بأهل الكتاب ، وثالث بمن له شبهة كتاب . وقسم خاص بأهل الأهواء والنحل ، ويقع فى أربعة أجزاء : جزء خاص بالصابئة ، وثان بالفلاسفة ، وثالث بآراء العرب فى الجاهلية ، ورابع بآراء الهند .

[192] يعتبر منهج ابن حزم فى هذا الكتاب معبراً تعبيراً صحيحاً عن المنهج الجدلى عند المسلمين فى مجال علم الأديان ، وللتعرف على مجهود المسلمين راجع رسالة دكتوراة نال بها الباحث : ياسر أبو شبانة على الرشيدى درجة الدكتوراة من كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة – جامعة الأزهر ، وهى بعنوان : " جهود علماء المسلمين فى نقد (الكتاب المقدس) من القرن الأول حتى القرن السابع الهجرى / عرض ونقد "

[193] بلدران صـ ١٩

عندها كل الديانات ، وسيجد فى نفسه إذ ذاك باعثة تصعب مقاومتها ، تدفعه إلى استخلاص هذه المبـــادئ العامة ، وجمعها فى وحدة كلية يحدد بها طبيعة الدين من حيث هو . كما أنه حين يرى ظاهرة التدين حظـــاً مشاعاً فى الجماعات ، مشتركاً بين الأمم الحاضرة والغابرة ، البادية والمتحضرة ، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه السؤال عن منشأ هذه الظاهرة العالمية ومصدرها : هل لها منبع فى طبيعة الفرد أو المجتمع ؟ أم كانـــت وليدة المصادفة ، أو ثمرة الصنعة والابتكار ؟ أم ماذا ؟ وهل كان فى اختلاف صورها ومظاهرها فى غـــضون التاريخ ماينم على وجود ضرب من التسلل والتولد بين بعضها وبعض ، أو ما يدل على الأقل على شيء من التدرج التصاعدى أو التنازلى بينها ؟ أم أنها لم تسر على سنن واحد ، بل كانت تصعد تارة ، وتنحدر تارة ، وتقف طوراً وترجع عوداً على بدء كرة أخرى ...؟ [194]

---

[194]) دراز صـــ ١٨